الباب الثاني

كيف نفكــــــــر؟

الغربة عن العالم
الــروح والجســـد
الفـكر والعاطـفة
الروحنة الحـــالمة
الغيبـــــــيات
الإيمان أم العـلم
قيمة الحيـــــاة

١١ـ الغربة عن العالم

يقول القديس يعقوب أن " محبة العالم عداوة لله – يع ٤ "، ويضيف القديس يوحنا " إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب – ١يو ٢ " ، ولكن الرب يقول " هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد يو٣: ١٦"، فكيف يحب الله العالم بينما يطالبنا بكراهية العالم ؟ في العظة علي الجبل ، قال الرب " ... لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون.. الحياة أفضل من الطعام .. لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم– مت ٦: ٢٥ – ٢٣ " . واستناداً إلى هذا شاعت موجة في التعليم بأننا أبناء الملكوت[11]، ولا يصح أن ننشغل بأمور الأرض ، مع افتراض التناقض بين أمور الحياة اليومية ، والأولوية المطلقة التي يجب أن يعطيها المسيحي لخلاص نفسه . ويرى الدارس للموعظة أن الرب قد طلب من سامعيه أن يزيد برهم علي بر الفريسيين ، ثم ضرب أمثلة هذا البر الشكلي في الصدقة والصلاة والصوم، كما تحدث عن مفاهيم سامية للوصايا وعن التعامل في محبة وتسامح .

أن الرب لم يطلب من سامعيه أن يتوقفوا عن العمل أو التعامل ، بل طلب تنقية الدوافع إلى العمل والتعامل ، وتحويل العمل من التزام شكلي إلى سلوك حياتي ، نابع من دافع أصيل هو المحبة لله والناس . ثم تطور ربنا بالفكرة إلى أهمية وحدانية القلب في خضوعه وحبه لله ، ثم يعود ليؤكد علي أهمية السلوك طبقا للنقاوة الداخلية ليكون سبباً في مجد الله . من هذا نفهم أن ملكوت الله وبره ، المطلوب هما الأولوية ، المقصود بهما أن يملك الله في الداخل (ملكوت الله داخلكم – لو١٧- ٢١) فينقي الفكر والعاطفة والإرادة من كل صراع أو قلق أو أنانية أو نسيان للآخرين . وتؤكد الكنيسة في شروحها أن المقصود بعبارة "لا تهتموا" هو لا تقلقوا وليس لا تعملوا ، وكلنا يعلم أن رب المجد حين تحدث عن يوم الدينونة ، ميز المختارين بأنهم من مارسوا عمل المحبة مع الآخرين (مت ٢٥ : ٣١ –٤٦) . ولكن التركيز علي أن الصليب هو صليب مقاومة الأفكار الشريرة ونوازع

---

١١ الشائع أن هناك فرقا بين ملكوت الله وهو الكنيسة ، وملكوت السموات وهى الحياة الأبدية ولكن رب المجد علم الناس أنهما شئ واحد ، إذ يمتد الأول (الكنيسة) ليصير في الأبدية إلى الثانى (السماء) قارن أمثال الملكوت مت ١٣ ومر٤ .

الخطية واغراءات الشيطان فحسب ، يؤسس نوعا من الازدواجية في شخصية الشاب ، ويكاد يبني فيه قناعة بأن الحياة في المسيح شيء منفصل ...عن الحياة اليومية وهنا الخطر! فما أن يخرج الشاب إلى الحياة العملية حتي يشعر بأنه لم يتدرب علي مواجهتها ، وتكثر الطلبات من المتكلمين أن يتناولوا موضوعات مثل "المسيحي والمجتمع" وما شابه ذلك، كأننا الشاب في كفة والمجتمع في كفة أخرى !

إن صليب المسيح مسئولية نحو تحويل العالم إلى الأفضل ... وخبروني لو أن كل مسيحي في موقعه الصغير يمارس هذه المسئولية ، ويحمل صليبه بفرح ، ويخرج من إطار ذاته إلى الدائرة التي يحيا فيها .. كيف كان سيصبح حال العالم وقتئذ ؟

إن للحياة على الأرض قيمة عظمي في المسيحية ، ولو كان هدف هذه الحياة فقط هو التمهيد لدخول الأبدية ، لكان السعداء هم من يموتون عقب المعمودية والميرون والتناول الأول إذ يضمنون الأبدية ! ولكن قيمة الحياة أمر سنعرض له تفصيلاً .

ولكن لماذا نركز تعليمنا علي الجانب الداخلي فقط ؟ .. قد يذكر البعض أسباباً تاريخية حين عانت الكنيسة من ضيقات أجبرتها علي الانعزال ، ولكن السبب في رأيي ، هو أن هذا المنهج هو الأسهل والأقل تكلفة . ومادمنا متمسكين به لا ينبغي لنا أن نلوم من يصفون المسيحية بأنها ديانة روحية بحتة لا تصلح للحياة اليومية !

يجب أن نميز إذن بين الغربة بمعني الانفصال عن العالم ، وبين الغربة بمعني الاختلاف عن تيارات الشر في العالم، فهذا هو العالم الذي وضعت مسئوليته علينا وهذا هو العالم الذي احبه الله " لأنه لم يرسل الله إبنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم .يو ٣ " وتصوروا معي لو كان التلاميذ قد خرجوا إلى أي مكان منعزل يبنون فيه مجتمعاً مستقلاً ، ربما كانوا قد تجنبوا الاستشهاد والاضطهاد ، ولكن هل كانوا وقتها يستطيعون القول أنهم قد نفذوا وصية المسيح ، وماذا كانت ستصير إليه الكنيسة حينئذ ؟ . إن الطريق إلى الحياة الأبدية يمر من خلال محبة الآخرين ، محبة بالعمل وليست بالكلام ولا يوجد طريق آخر للخلاص ، فمن خلال الآخر أكتشف نفسي وأترجم أيماني وأكون ابناً بالحقيقة للآب الذي في السموات .

١٢ـ الروح والجسد

إن جذور العداوة بين الروح والجسد تكمن في الثنائية الأفلاطونية الشهيرة ، والتي غرست نفسها في التعليم المسيحي ، خاصة وأننا نربطها بفهم خاص لآيات معروفة مثل "الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد – غل ٥: ١٧ " و"اهتمام الجسد هو موت ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام – رو ٨: ٦ " وهكذا يشيع بين الناس بأن الروح لها الأولوية المطلقة ، وأن الجسد عدو مميت للأنسان ، ينبغي إذلاله بالصوم والسجود والسهر ، وأنه لا يجب الاهتمام باحتياجات الجسد بل باحتياجات الروح . ويتكرر الكلام في العظات عن ضرورة إهمال الماديات وهو أمر يتناقض مع طبيعة الإنسان . لقد خلقنا الله مزيجاً من الروح والمادة ، فوضع في كياننا الحاجة إلى الطعام والشراب والعمل والراحة ، إلى المسكن والملبس . لقد اهتم الرب بإطعام للجموع ، بينما خصص الرسل سبعة شمامسة لخدمة المائدة .

ورغم أن عدداً من الخدام يهتمون بتوضيح الفهم السليم في هذا المجال ، وهو أن الجسد لا يعني البدن أو الطاقات الإنسانية المسماة بالغرائز ، وأن قصد الإنجيل هنا هو الإنسان العتيق ، وبهذا يستقيم تفسير الآية القائلة بأن الجسد يشتهي ضد الروح ، أي أن الإنسان العتيق يشتهي ضد الروح القدس ، إلا أن كثيرين مازالوا يتمسكون بالفهم الخاطئ وهو أن الجسد يعني كل ما هو مادي في الإنسان .

الإنسان العتيق هو الذي انفصل عن الله فتشوهت طاقاته ومواهبه المعطاة له من الله، فمثلا طاقة الجنس التي وضعها الله في الإنسان لكي يحب ويخرج من أنانيته تحولت إلى مجرد اللذة .. وهكذا، وعبر آلاف الأجيال من الانفصال عن الله توارث الإنسان هذه الطاقات المشوهة ، وهكذا نفهم النص "لأني هأنذا بالآثام حبل بي وبالخطايا ولدتني أمي – مز ٥٠ " ، والتي تجسد المسيح لكي يعيد هذه الطاقات إلى وضعها المقدس ، كما تقول الكنيسة "يرد الإنسان إلى رتبته الأولى" .

وبينما ننظر بتوقير إلى ما يسمي بالأيام الروحية ، نضطر إلى الموافقة علي مضض علي أي نشاط رياضي ، فهو نشاط جسداني يأتي في المرتبة الأقل ، إذا أتى أصلاً !

ولنتوقف قليلاً عند هذه النقطة الهامة :

الثابت أن الإنسان وحدة متكاملة لا يمكن تقسيمها إلى جسد ونفس وروح ، ولا يمكن التعامل معها علي أساس مجزأ ، فرُب إنسان حزين يفقد شهيته للطعام ، ورُب حاله نفسية يعجز معها الإنسان عن تحريك أحد أطرافه ، بل إن مجرد ألم بسيط في أصبع القدم قد يجعل الإنسان عصبياً متوتراً . ومن منّا ، بعد انقطاع طويل عن الطعام والراحة ، يملك القدرة علي الدخول في مناقشة موضوعية ، أو حتى يجد في نفسه القوة علي الوقوف للصلاة أو قراءة الكتاب المقدس بذهن حاضر؟

ونقرأ قصة بديعة في البستان عن راهب سورى حضر الى البرية ليتتلمذ على آباء مصر ، وبعد فترة طلب مشورة أب الدير ، فقال : إننى في بلادي كنت أطوى الأيام صوماً ، أما هنا فلا أحتمل الصوم ليوم واحد ، فأجابه الشيخ الحكيم : في سوريا تبنى الأديرة قريبة من القرى ، والناس يعلمون أخبار الرهبان ، لقد كان مديح الناس هو الذي يقويك على احتمال الجوع .

لهذا نري الكتاب المقدس حين يتحدث عن الإنسان يستخدم تعبيرات مثل الجسد ، النفس ، الروح ، كل منها في مكان الأخرى دون تردد مشيراً إلى الإنسان كله .

فالرب يتحدث عن الضيقات الأخيرة ، وأنها لو لم تقصر فلن يخلص جسد (مت ٢٤ : ٢٢) والمقصود إنسان ، والذين انضموا إلى الكنيسة يوم الخمسين كانوا نحو ثلاثة آلاف نفس (أع ٢ : ٤١) والمقصود ثلاثة آلاف إنسان . وقد كتب كثيرون في هذا منهم المتنيح الأنبا بيمن أسقف ملوي في كتابه القيم " المسيحية والجسد " .

ولو كان الجسد (الجسم) شيئاً مرذولاً فلم رتب الله في تدبيره أن يخلص الجسد (أف ٥: ٢٣) ، فنقوم بأجساد ممجدة في اليوم الأخير ؟ أرجو أن ننتبه إلى هذه النقطة ، فحين تحدث القديس بولس (١ كو ١٥ : ٣٥- ٤٥) ذكر أننا نقام بجسد روحاني ، ولو كان التناقض بين الروح والجسد كما يظن الناس ، فكيف يمكن أن يكون الجسد روحانياً . ويذكر هنا أن جسد السيد بعد القيامة كان ملموساً .. " فقال هم .. انظروا يدي ورجلي أني أنا هو . جسونى انظروا فأن الروح ليس له لحم وعظام– لو ٢٤ : ٣٦ – ٤٣ " ، فضلاً عن أن الرب قد صعد إلى السماء جسدياً (بنص القداس) ، أي واللاهوت متحد بالناسوت . فالإنسان

كله يكون جسدانياً بمعني الإنسان العتيق ، بينما الإنسان كله يكون روحانياً بمعني الإنسان الجديد .

وقد استوعب الفكر الأرثوذكسي هذه الحقيقة تماماً، فها نحن نري السرائر الكنسية، وهي وسائط الخلاص، كلها تقدم إلى الناس من خلال وسط مادي حتى يمكن للناس أن يتعاملوا معها (المعمودية في الماء / الميرون بالزيت / التناول من خبز وخمر) ويحفل الطقس الأرثوذكس بغذاء متكامل للإنسان كله، ففيه نسمع الألحان، ونفهم القراءات ، ونشم رائحة البخور ونقف وننحني ونركع ونسجد، وأخيرا نأكل من جسد الرب الأقدس ونشرب من دمه الكريم .

وهذا هو المنهج السليم، أن نتعامل مع الإنسان كوحدة متكاملة ، كل جانب يكمل الآخر ويؤثر ويتأثر به . صحيح أن نتائج الخطية تظهر غالباً في الجانب الملموس من الإنسان ، إلا أنه من الواضح أن من يسقط في الزنا – مثلاً – يسقط بفكره وإرادته أولاً ، ولا تكون ممارسة فعل الخطية سوى التعبير الملموس عن انحراف الفكر والإرادة بعيدا عن العفة . من أجل هذا نصوم ونسهر ونسجد ونتعب ، لأن كل هذا جزء من عبادة متكاملة ، فنحن نصوم ونصلي ، ونسهر ونتوب . ولو أدينا السجود دون روح الإنسحاق والتوبة ، ستصبح السجدات مجرد أداء ميكانيكي . ولن تؤدي إلا إلى البر الذاتي[١٢] الذي رفضه رب المجد . إذن ليس الجسد هو مصدر الخطية، بل عندما يسقط الإنسان يسقط كله بدناً وفكراً وعاطفةً وارادةً وروحاً، وعندما يتوب يتوب كله ، وعندما يتمجد يتمجد كله .

---

١٢ يركز البعض علي الأرقام القياسية في النسك ، وهو منهج رفضته الكنيسة بصرامة لأنه يحول النسك من محبة معاشة إلي مباراة في مدد الصوم وعدد السجدات وفي بستان الرهبان قصة جميلة للقديس سلوانس مع الراهب الذي اعترض على اشتغال الرهبان بالعمل اليدوى (ص ٢٢٢) وغيرها كثير . إن القديسين الذين كانوا يصومون أياماً متصلة لم يفعلوا ذلك تعذيباً لأجسادهم ، ولكن لأن التهابهم الداخلى قلل حاجتهم للطعام .

١٣- الفكر والعاطفة

يمتد هذا الاتجاه الفكري إلى بعد آخر هو ثنائية العقل والقلب وبينما نعلي من شأن القلب ونقاوة القلب وأعطاء القلب وتكريس القلب ، ننظر بنظرة الشك إلى العقل .

فالعقل – في رأي بعض الناس – هو أساس المشاكل ، والتفكير في علاقتنا بالله يحوها إلى علاقة جافة ، وإعمال العقل يحرم المؤمن من اضطرام القلب في عمل التوبة وفي الخدمة ، حتى أننا كثيرا ما نسمع الناس يصفون شخصاً واسع الثقافة بأن القراءة الكثيرة قد افسدت مخه . ويتردد هنا قول شائع " أنه بينما يتجادل اللاهوتيون يتسلل البسطاء إلى ملكوت السموات" وتصوروا معي لو كان معلمو الكنيسة الكبار أمثال اثناسيوس وكيرلس وساويرس وغيرهم قد التزموا بهذه المقولة، واعتذروا عن عدم الاشتراك في المجامع المسكونية ، إلى أية حال كان سيصير حال الإيمان المسيحي اليوم ؟.. ولكن هناك فرق شاسع بين التفكير والحوار العقلانى وبين مجرد الجدل[١٣] .

ولكن الكتاب المقدس حين يتحدث عن القلب أنما يعني العقل والأمثلة كثيرة :

لقد علم الرب أفكار قلوبهم والمقصود طبعا أفكار عقولهم (مر ٢: ٦ –٨) وسليمان الحكيم يتحدث عن القلب الذي ينشئ أفكاراً (أم ٦: ١٨) والمقصود أيضا العقل .

كما يشار إلى القلب في مواضع كثيرة بمعني الإرادة (نح ٤: ٦+ مز ٦٢ : ٢١) ، وأيضا بمعني العاطفة (تك ٦: ٦ + ٢ كو ٢: ٤ + جا ١١ : ١٠)

والأمثلة في الكتاب المقدس عديدة علي أن القلب والعقل مترادفان . وأعني العقل بملكاته الثلاث : الفكر والعاطفة والإرادة ، (فهرس الكتاب : ص ٤٨٩ إلى ٤٩٢)

والمقصود بنقاوة القلب هو خلو الذهن من كل حقد أو شهوة أو حسد أو كبرياء أو خوف أو إدانة ، كما وأن المقصود بتكريس القلب هو وجود اتجاه محوري في الحياة تتركز حوله طاقات الإنسان .

وفي رأيي أنه لا يوجد ما يسمي بعاطفة مستقلة عن العقل ، فنحن نحب لسبب أو أسباب ، ونخاف أو نكره ، ونقبل أو ننفض لسبب أو أسباب ، ولو جردنا أية عاطفة من أسبابها

---

١٣ الجدل هو نقاش يهدف كل طرف فيه إلى فرض وجهة نظره مفترضاً أنه يملك الحقيقة المطلقة ، وبديهى أن الجدل لا يمكن أن يفيد على أي مستوى .

نصبح كمن يقول أنه قد أحب من أول نظرة (وهو مفهوم شائع في الأفلام). ولا يختلف إثنان في أن الحب من أول نظرة ليس حباً علي الإطلاق بل هو غالباً رغبة أو نزوة تتستر تحت اسم الحب . فالحب كائن حي يولد صغيراً ضعيفاً في صورة ميل أو إعجاب ، وينمو ويكبر مع الفهم والاختبار والشركة والجهاد والعطاء المتبادل ، وقد يضعف أو يموت إذا لم يجد غذاءه الكافي . إن الحب الحقيقي حياة تبدأ وتنمو وتبني علي أسباب منطقية ، في صورة جهاد مشترك وقبول مشترك وارتياح مشترك ، وهو ما نسميه بالعواطف المتبادلة... وهكذا نحن أيضاً في علاقتنا مع الله .

الله أحبنا أولاً، صحيح أننا نقول أن الله أحبنا "بلا سبب" ، بمعني أنه أحبنا بلا سبب فينا ، أي ليس فينا من صلاح يستدعي حبه ، أحبنا فضلاً منه ولكنه لديه أسبابه لحبنا ، ببساطة لأن جوهر الله محبة ولا يستطيع إلا أن يحب ، ونحن أيضا نحبه لأسباب قوية . نحبه لأنه يترجم حبه لنا في صورة أعمال محددة ، فهو يعتني بنا ويحمينا ويقيتنا ويقدم لنا الخلاص من الموت . إذن متي شعرت بانجذاب نحو فكرة ما أو شخص ما، أو نحو الله ذاته ، ينبغي أن أحلل ميلي هذا وأفهمه ، وبهذا أؤسسه علي صخر الحقيقة وليس علي رمال الأهواء .

إن حصر الحياة الروحية في دائرة العاطفة أو ما يسمي بالقلب يجعلها شيئاً شبيهاً بالحب من أول نظرة ، قد يكون قوياً ، وقد يكون غالباً ، ولكنه بالتأكيد لن يكون حقيقياً ولا دائماً ، ولا مستعداً لإجتياز الصعاب من أجل المحبوب ، والتشبيه البديع الذي سمعته من أحد الأساقفة الإجلاء : أن البداية في الحياة الروحية بالحماس العاطفي وحده تشبه نار القش ، ترتفع سريعاً ، ثم تخمد في ثوان ... إذا نحب يا أخوتي " لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق" (١ يو ٣: ١٨) .

يعترض البعض بأن إرجاع كل شيء إلى أسباب منطقية قد يفقدنا بساطة الروح، وأنه ينبغي أن نأخذ كل شيء ببساطة، ويمتد هذا المطلب حتى إلى الحقائق العقيدية مثل سر الثالوث ، فلنتقبلها ببساطة دون جدل أو مناقشة . والمعني الكامن هنا " نقبلها دون فهم" . وهنا أرجو أن يكون الفرق واضحاً بين بساطة الروح، وبساطة العقل . إن بساطة الروح تعني القدرة علي التسامح ومحبة الأعداء والخروج من أسر الأنانية ومقاومة أفكار

الحسد والشهوة.. أما بساطة العقل فهي في كلمة واحدة تساوي الجهل أو السذاجة ! ، واقرأ معى ما يقوله القديس بولس " أيها الأخوة لا تكونوا أولادا في أذهانكم ، بل كونوا أولادا في الشر وأما في الأذهان فكونوا كاملين – ١ كو ١٤ : ٢٠ "
أن كنتم غير متفقين معي حول الفكر أم العاطفة وأيهما هو السبيل إلى الارتباط بالله ، ابحثوا في الأناجيل الأربعة محاولين الإجابة علي سؤال محدد : لماذا أحب الناس رب المجد يسوع المسيح ؟ أم أنهم أحبوه بلا سبب ؟
إن الكنيسة التي أنجبت القديس بولس البسيط وغيره من القديسين البسطاء ، أنجبت أيضاً المعلمين العظام بنتينوس وكليمنضس وديديموس وأوريجانوس وكيرلس وساويرس وأثناسيوس الرسولي، والجميع كانوا ميداناً خصباً لعمل الروح القدس . فحتى القديس بولس البسيط لم يكن يعبد إلهاً لا يعرفه ، فكيف يحب إلهاً مجهولاً، وإذا استبعدنا العقل والبحث ، فكيف نحصل علي المعرفة إذن ؟! هل ننتظر الإلهام السمائى أم الحَدْسْ الغيبى ؟!

١٤ـ الروحنة الرومانسية

وهكذا تتحول علاقتنا مع السيد المسيح إلى علاقة عاطفية وجدانية ! فإذ تربى شبابنا علي تعطيل فكره والتخلي عن إرادته ، لا يبقي له سوى الشحن العاطفي !!
ويتجمع الناس بأعداد كبيرة حول من يملأون ساعات الوعظ بالكلام الذي يمس شغاف القلب !!. وكم سمعنا من عظات في جمعة الصلبوت تندد ببيلاطس الجبان !! وتشجب يهوذا الخائن ، ورثاء وتأبين للمسيح المسحوق الذي مزقت جسده السياط والأشواك والمسامير .. وتفيض الدموع ، وتكفهر وجوه الناس وكأننا في سرادق عزاء ![١٤] ، وينسي الناس أن السيد المسيح قد رفض هذا ، حين طلب من بنات أورشليم ألا يندبن عليه (لو ٢٣: ٢٨) فلا ينبغي أن نحزن شفقة علي المسيح فهو لا يحتاج إليها ، بل يريد من كل

---

١٤ بدأ تقليد غريب في الانتشار ، وهو ذهاب السيدات لحضور صلوات الجمعة العظيمة في ثياب سوداء ، بعض الرجال أيضا يضعون أربطة عنق سوداء ! وحين سألت أحدهم عن السبب ، أجابنى : أليست هذه هى الذكرى السنوية لموت المسيح !!. ناسين أن الآم الصليب لا تتعارض مع فرحة الخلاص بل إن الرب نفسه قد احتمل آلام الصليب من أجل السرور الموضوع أمامه.

منا أن يواجه ذاته وأنانيته ، ويجاهد بدموع وعرق ودماء حتى يكسر – بنعمة الرب – التمركز حول الذات ليعطي حبه للآخرين، حتى الأعداء منهم . وليس معنى هذا أن نستقبل الصليب بالأفراح ، نعم أحزن ولكن على ذاتيتي التي اتمسك بها وأمامى المصلوب يغفر لمن عذبوه .

ويبدو تأثير هذا المنهج العاطفي واضحاً في مرحلة المراهقة ، إذ تكون العاطفة قوية ، وسرعان ما يلتهب الشاب في حياة التوبة والخدمة ، وهو أمر طيب لو أكتمل بفهم لكل أبعاد الصليب، وإدراك لمعني المسئولية تجاه الآخرين . أما إذا اقتصر علي الشحنة العاطفية فأنه يكون بناءاً مؤسساً علي الرمال ، قد يرتفع عالياً ، ولكنه يسقط أمام أول عاصفة . وكم من شاب ترك المسيح بسبب علاقة عاطفية كانت أقوى من عاطفته الدينية ، لغياب قناعته الفكرية ورضاه الإرادي بتبعية المسيح .

وليس ببعيد عن الذاكرة ذلك الواعظ الذي تمركز في الصعيد وتجمع حوله الآلاف يحضرون إليه من كل بلد بعيد ، ظانين أنه سيقودهم إلى المياه الحية ! ولكن ليعودوا عطشى كما ذهبوا ، ولما تنبهت إليه الكنيسة وأبعدته عن موقع التعليم ذهب ، ولكن بعد أن جذب معه عدداً من هؤلاء " الدراويش ".

إن الشاب الذي يبنى علاقته مع الكنيسة على أساس العاطفة والحماس وحدهما عادة ما يتخذ طريقاً من ثلاث : فإما أن تخمد نار الحماس سريعاً ، وإما أن يتقوقع منعزلاً عن المجتمع ، حاصراً فكره في حياته الداخلية، مترجماً هذا أحياناً إلى قرارات متسرعة بالتكريس، وإما أن يخرج إلى الناس زاعقاً داعياً إلى التوبة هرباً من الجحيم ! كما خرج "دون كيشوت" كفارس أوحد يقاتل الأوهام ! وأخيراً يُحمل إلى داره منهك القوي ، يعزي نفسه بأنه قد أدي رسالته، وليس ذنبه أن الشر قوي في العالم . ولا يدري أنه قد أساءَ إلى سيده المسيح إساءةً بالغةً ، وأن موقفه لا يختلف عمن طلباً من الرب أن يحرق مدينة رفضت قبولهم، فانتهرهما لأنهما لم يفهما ما الذي يهدف إليه الرب من الكرازة (لستما تعلمان من أي روح .. لو ٩: ٥١ – ٥٦).

ولقد شاهدت شباباً يصطدمون بعقبات كثيرة رغم أنهم كانوا يلتهبون حماساً للتوبة أو الخدمة ، وإذ كان هذا الحماس دون فهم كاف للحياة المسيحية وللمنهج الأرثوذكسي في

التوازن بين التأمل والعمل ، وبين النسك والمعرفة . سرعان ما تبددت خمر الحماس، وإذ بهم يسقطون من سماء الشعارات علي أرض الواقع الصلبة . إن رب المجد يسوع لم يتجسد من أثير بل من لحم ودم . وقد تجد أحياناً شاباً متحمساً متفهماً ولكنه يفتقر إلى إرادة الفعل أو إلي اتخاذ الموقف الإيجابي الذي بدونه لا معني ولا قيمة للحياة ، ولعل هذا هو نفس موقف الشاب الغني بعد حواره مع السيد المسيح ، حين وجد أن الكلفة أكثر مما يحتمل (مت ١٩: ١٦ – ٢٢) .

الخلاصة أن التهاب العاطفة نحو المسيح يكون نتيجة للإختبار والمعرفة ، فحب التلاميذ للمسيح قد تأسس علي أنهم قد ثبتوا معه في تجاربه (لو ٢٢: ٢٨) ، وليس لأنهم قد استهوتهم كلماته أو تاهوا فخراً بمعجزاته .

إنما التعليم السليم هو الذي يغذي الفكر، ويشحن الوجدان ، ويحرك الإرادة ليستثير الإنسان إلى مراجعة مواقفه وتعديل حياته إلى الأفضل ، وسنعود إلى هذا تفصيلاً .

١٥ـ الغيبيات

في أواخر عام ١٩٦٨ ترددت إشاعة تقول أن الحكومة قد قررت فرض تحديد النسل وذلك بحقن تلاميذ المدارس الابتدائية في بطونهم ! وانتشرت الإشاعة في لمح البصر وتوقفت الدراسة في أغلب مدارس القاهرة ، وفر التلاميذ هاربين ، بينما خرجت الأمهات إلى الشوارع يصرخن كل علي أولادها !!

ويحلو للناس أن يرددوا قصصاً و"حواديت" لا أساس لها من الصحة، ومنها ما شاع منذ سنوات أن السيدة العذراء قد ظهرت لأحد الناس وهي ترتدي ثوباً أسود مكتوب عليه أربعة أربعات (٤٤٤٤) ، وفسر هذا بأن يوم الأربعاء ٤/ ٤/ ١٩٨٤ سيكون يوماً أسود في حياتنا – لا قدر الله – وسرعان ما ذاعت القصة !

ويردد الناس هذه " الحواديت" في تلذذ وانبهار حتى يتضح زيفها ، ورغم هذا فالجميع مستعدون لترديد أية "حدوته" جديدة بنفس الشغف ، ولا يتوقف واحد ليبحث معقولية هذه الحواديت أو الإشاعات.

ومن المحزن أننى في اجتماع للشباب سمعت قصةً عن راهب كلف بالانتقال من ديره ليخدم في مكان آخر ، ولما سئل عما يحتاج اليه في المكان الجديد لم يطلب سوى محتويات قلايته من كتب وأثاث ، وما أن قال هذا حتى انتقلت محتويات القلاية في لمح البصر إلى المكان الجديد على بعد مئات الكيلومترات ! ولما رفضت هذا الكلام ، صاح الشباب : أليس الله بقادر على نقل الأثاث ؟ فأجبت : ولم يقوم الله بنقل الأثاث ؟ وأين السيارات والسكك الحديدية التي تقوم بهذا ؟

وفي نفس الإجتماع روت لى طالبة جامعية عن مصدر موثوق به ، على حد قولها ، أن شخصاً ذهب يطلب الرهبنة في أحد الأديرة ولما رفضه الدير لسبب ما ، ألح هذا الشخص طالباً تخصيص قلاية له داخل الدير ، وإذ لم يجد موافقة من الدير أخرج من جيبه حبلاً ربطه في باب القلاية ومضى وأخذ القلاية معه !! وذات مرة أكد لي شاب جامعي أنه يؤمن أنه لو أعطى كل طاقته للخدمة فسوف يتفوق في الإمتحان حتى ولو لم يذاكر ! بينما أعربت شابة عن ثقتها أنها لو اهتمت بحياتها الروحية فستأتيها الوظيفة دون بحث منها !

ومادام العقل في أجازة ، فالبديل هو إلقاء المقادير علي الغيبيات ، وتعليق أهم القرارات علي أمور غريبة ، مثل إلصاق عملة بزجاج أيقونة أو رش بعض الرمال على ورقة الإجابة ، وانتظار التفوق حتى لو لم يكن الطالب مستعداً على الإطلاق !

وقد شاهدت بعيني رأسي القديسة العذراء مريم وقت ظهورها في الزيتون في ربيع ١٩٦٨، وظللت أهتف طالباً منها أن تهبني النجاح في الدراسة ، ولو كنت قد أكتفيت بهذا دون الانكباب علي دروسي استوعبها لما قدر لي النجاح ، وربما كنت وقتها ألقي اللوم علي العذراء لأنها تخلت عني وتركتني أعاني مرارة الرسوب !

نعم أننا نؤمن بشفاعة القديسين، نعم أننا نؤمن بيد الله الفاعلة في حياتنا ، ولكن الله لا يفعل لنا ما نستطيع نحن أن نفعله . وهو ما نراه واضحاً في موقف المسيح عندما أقام لعازر حيث كان للناس دور . ينبغي إذن أن نبذل أقصي جهدنا ، وما نعجز عنه يعمله الله ، الذي يعين ويكمل ، ولكنه لا يهب نعمته للكسالى .

ينبني علي هذا مفهوم شائع عن" القسمة والنصيب" ، وأن كل واحد "بياخد نصيبه" ، و "أجري يا بن آدم جري الوحوش ، غير رزقك لن تحوش" و" الحذر لا يمنع القدر" فضلاً

عن المثل الشعبي المشهور " المتعوس متعوس...." ! ويحضرني هنا موقف سائق تاكسي كان ينطلق بسرعة مفزعة ، ولما طلبت منه إنقاص السرعة ، أجابني أنه لو كان مكتوباً لنا أن نصاب بحادثة ، فسوف تحدث حتى لو سرنا ببطء، ولو لم يكن مكتوباً فلن نصاب بشيء حتى لو انطلقنا بسرعة١٤٠ كيلو مترا في الساعة !

وأذكر معرضاً للكنيسة خططنا له أن يضم عشرين قسماً، وإذ تكاسلنا في العمل ، تكون المعرض من عشرة أقسام فقط ، فقلنا " لو كان ربنا يريد" لاكتملت الأقسام العشرين !!.. وواضح أن هذا مجرد تبرير للكسل ، وهو أيضا منهج مريح إذ يخلي الإنسان مسئوليته تماماً ، فكل ما يحدث هو إرادة إلهية . وقد شاهدت في برنامج تليفزيونى شخصاً قتل طفلته ، ولما سألته مقدمة البرنامج : كيف طاوعه قلبه على ذبح طفلة ، أجاب : هذه إرادة الله ، فلو لم يكن الله يريد قتلها لكان قادراً على شل يدي قبل أن تمسك بالسكين !!

الثابت من نص الكتاب المقدس أن الشعب كان يتحرك في البرية تقوده سحابة تشير إلى العناية الإلهية ، وأنهم كانوا يرتحلون ويقفون ويقيمون حسب حركة عمود السحاب . ومع هذا نرى موسى النبى العظيم يطلب من حوباب بن رعوئيل المديانى أن يرحل معهم كدليل في البرية (عد ١٠: ٣٣) ، فهل هذا ضعف إيمان من موسى أم أنه كقائد حكيم يجتهد ليعد للرحلة أفضل إعداد ؟ وما لا يستطيعه الشعب يستطيعه الله . فالله ينزل المن من السماء ، ويخرج الماء من الصخر ، أما الشعب فهو الذي يجمع المواد ويكد ويعمل ليبنى خيمة الإجتماع . ألم يكن الله قادراً أن يبنيها في لحظة حسب المثال الذي يريده ؟!

وواضح أنه لا يمكن حسم هذه القضايا قبل تعديل المنهج الفكرى الذي يدفع الناس إلى أسهل الحلول ، وإلى تعليق النجاح علي حفر اسم الطالب علي الأيقونة، أو ترجيح اختيارات مصيرية كالزواج أو الهجرة بأجراء قرعة أو طلب أمارة معينة !

إنما هو استمرار للمنهج الذي شرحناه من قبل : العجز عن اتخاذ القرار ، بل والعجز عن مواجهة مسئولية الحياة ، تلك الهبة العظيمة التي منحت لنا . وهكذا يتحول الناس إلى متفرجين على حياتهم، بينما المنهج المستقيم يجعل لله دوراً وللإنسان دوراً، وبديع هو قول الآباء الرسل في مجمعهم " .. قد رأي الروح القدس ونحن – أع ١٥ : ٢٨".

أن هذا الموقف السلبي المتواكل ينعكس علي الحياة كلها ، وبينما ينطلق الناس في الغرب والشرق يعملون ، مازلنا ندور في قضايا حسمت منذ دهور : هل يتعارض الإيمان مع التخطيط ؟ هل يتعارض الإيمان مع العقل ؟

هل هذا هو الباب الضيق الذي طلب منا المسيح أن نجتازه ؟ أم هو الباب الرحب السهل الذي يؤدي إلى ... لا قدر الله !

١٦ـ الإيمان والعلم

إن الضرر الأساسي الذي ينجم عن الخفض من شأن العقل هو ذلك القصور الشديد عن استيعاب متغيرات العصر ومعطياته. إننا نسمع كلاماً كثيراً تحت عناوين مثل روح العصر ، تحديات العصر ، أفكار العصر ، مبادئ العصر ،... ولكن جدير بنا أن نتفق أولا علي مفهوم هذه الكلمة الزئبقية " العصر" .

إن المسألة بإيجاز هو أنه في كل حقبه زمنية يصل الناس ، بعد محاولات مضنية إلى أسلوب للتفكير ، واتجاهات للحياة ، يتأكدون من سلامتها ، إذ برهنت علي نفعها في التصدي للمشكلات الملحة التي يقابلونها في حياتهم . ولا خلاف في أن عصرنا هذا هو عصر العقل .. عصر البحث الدؤوب عن المعرفة ، وتطبيق المعرفة (التكنولوجيا) .

هو عصر العلم إذن ، وينظر البعض إلى العلم فيرفضونه ويقولون أنه لا يتفق مع الإيمان ، ونسمع كلاماً عن العلم والإيمان ، ولكننا في قرارة أنفسنا لا نطيق المنهج العلمي ، وعلي حد قول المفكر والفيلسوف د. زكي نجيب محمود[١٥] "إن مضجع العلم خشن علي جلودنا " وقد يدرس الشخص أحدث العلوم ، بل قد يدرّس العلوم ، ولكنه نادراً ما يترجم دراسته إلى سلوك وحياة . ولعلنا نقرأ من وقت لأخر عن الدجالين وكيف يتردد عليهم المتعلمون ، وأحياناً – وواحسرتاه – الأساتذة والمعلمون !. ويضرب القارئ كفاً علي كف حين يري

---

١٥ ثقافتنا في مواجهة العصر– صفحة ٧١ ... دار الشروق – الطبعة الأولي ١٩٧٦

من يدرس العلم الحديث لتلاميذه ، يذهب إلى دجال ليقرأ له الكف أو يفتح له " الكوتشينة "[١٦] !

وفي أكثر من اجتماع سألت الشباب : هل الإنسان مخير أم مسير ؟ (أعني طبعاً في الأفعال الإرادية) ، فأجاب الكل بالإجماع : مخير طبعاً ، حُر الإرادة .. فقلت : عظيم ولكن من منكم لا يوجد بداخله إيمان ولو بقدر ضئيل أن كل شيء نصيب ، وأن " المكتوب علي الجبين لازم تشوفه العين "؟ وفوجئت بالصمت يسود المكان !.. وهكذا ترون أننا لا نحيا ما نعرفه ، والعجيب أن كثيرين يصرون علي أن المعرفة أو العلم لا تؤدي إلا إلى الشك واهتزاز الإيمان . ويقدمون حججاً يدللون بها علي أنه لا صلح ولا اتفاق ولا تعايش بين الإيمان والعلم ! ... فيقولون :

- في العلم لا شيء يقيني ، فالنظريات العلمية تتبدل وتتطور كل يوم ، بينما قدم الإيمان حلاً نهائياً وأجاب علي كل سؤال . أو بمعني آخر أن الإيمان مبني علي ثوابت بينما النظريات العلمية لا يمكن أن تثبت بصفة نهائية .
- العلم مبني علي القياس والملاحظة ، بينما الإيمان وتوابعه لا تقاس ، فكيف نقيس عمق الإيمان أو قوة الرجاء. فالعلم مبني علي المنظور والمحسوس ، بمعني أن العلم يتعامل مع كل ما يدخل في نطاق الحواس ، بينما الإيمان هو الإيقان بأمور لا تري (عب ١١: ١).
- العلم يسعي إلى القوانين التي تحكم الكون ، بينما الإيمان قائم علي الخوارق والمعجزات ، أو بمعني أخر العلم يسعى إلى اكتشاف القوانين ، بينما الإيمان قائم علي كسر القوانين .
- العلم محدود بطاقة العقل ، بينما الإيمان يتعامل مع حقائق تفوق العقل مثل سر الثالوث أو غيره من الأسرار الإلهية .

فهل يوجد حل لهذا التناقض الظاهر ؟

نعم يوجد حل !!.. ولنفند هذه الحجج واحدة فواحدة...

١- نعم... العلم يصل إلى نتيجة ما ويؤكدها ، ومع تطور البحث العلمي وتقدم أساليبه تتعدل هذه النتيجة .. وبالقطع لابد أن تكون نتائج البحث العلمي متغيرة ، لكن منهج

---

١٦ في رحلة جامعية أعلنت أنني سأفتح " الكوتشينة " لكل من يرغب ، وقلت للمتقدمين أي كلام ، ورغم تأكيدى بأنني أقول أي كلام ، إلا أن طلاب الهندسة استمروا في التزاحم كل يريد أن يري "بخته" !

البحث من حيث السعي وراء الظواهر ، وتحليل المشاكل ، وفرض الحلول ، وصياغة القوانين ، وعدم قبول أية حقيقة دون برهان ، والاستناد إلى التجريب والتفكير المنطقي ، وأخذ كل المتغيرات في الاعتبار عند صياغة القانون العلمي .. إلى آخر ما يميز المنهج العلمي ، هذا لا تغيير فيه .. المنهج العلمى ثابت ولكن النتائج تتطور .. وهكذا أيضا الإيمان ..

إن مبادئ الإيمان ثابتة، ولكن ثماره تتنوع من عصر إلى عصر. لقد أفرزت محبة المسيح في القرن الأول مدرسة الإسكندرية اللاهوتية ، وفي القرن الثاني ملايين الشهداء ، وفي القرن الثالث آلاف الرهبان والراهبات، وفي القرنين الرابع والخامس المعلمين الكبار والمدافعين عن الإيمان .. وهكذا حتى القرن العشرين حين افرزت فكرة التربية الكنسية ، والقرن الحالى القنوات الفضائية التي تكرز بالإيمان .

المنهج واحد ، وهو كيف يحيا الإنسان إيمانه بالمسيح ، أما الأسلوب فيختلف ، ورُب أشياء سادت في عصورٍ رفضتها عصورٌ تلتها ، والأمثلة كثيرة : منها الموقف من صلاة القداس يوم الجمعة أوتعريب الصلوات أو إختلاط الجنسين داخل الكنيسة.

ولا ترفض الكنيسة أية فكرة لمجرد أنها جديدة ، وإلا فخبروني قبل ثلاثين سنة ، كم كنيسة كان لديها مكتبة صوتية أو نادٍ رياضي أو مكتبة للبيع أو مشاغل لتعليم البنات أو خدمة منظمة لأخوة يسوع .. كم بيت للخلوة كان مفتوحاً للناس ، وكم لقاء صيفي كان يعقد علي الشواطئ لخدمة الشباب ؟

إن عدم يقينية النتائج وتطور العلم وتعمقه، يرى فيه العلماء القدرة اللانهائية وراء خلقة هذا الكون، وكيف أن العلم يكتشف كل يوم قليلا قليلا من الحكمة الإلهية .

٢-وماذا عن إستناد العلم إلى القياس ، وكيف نقيس عمق الإيمان أو قوة الرجاء؟ . بديهي أننا لا نستطيع أن نقيس ألا ما يمكن قياسه . وعندما تحدث الرب عن يوم الدينونة لم يفرز الأبرار من الأشرار قائلا لهم : لقد كان إيمانكم ثابتاً ورجاؤكم قوياً، بل فرز الناس بناءاً على أعمال واضحة يمكن قياسها (مت ٢٥) .

وهذا هو المنهج المستقيم ، تحدث عن المبادئ كيفما شئت ولكن أرني أيمانك بأعمالك ، وهذا أيضاً يجيب علي ما يقال بأن مجال الإيمان هو الإيقان بأمور لا ترى ، بينما العلم

محصور في نطاق الحواس ، فأن لم تترجم هذه المسائل الإيمانية غير المنظورة إلى نتائج مدركة بالحواس فلا قيمة لكل هذا الكلام .

الله موجود .. حقيقة غير مرئية، إن لم أترجمها في حياتي إلى ثقة بهذا الموجود، وسعي في الحياة بغير قلق، واطمئنان إلى أن العدل لابد أن يسود، ومواجهة للمخاوف دون تردد، لما كان لحقيقة وجود الله أثر في حياتي ، أو بمعني آخر لا يكون الله موجوداً بالنسبة لي .

حين أحضروا المفلوج إلى المسيح ، قال له : "مغفورة لك خطاياك" ، وإذ تذمر اليهود سأهم " أيما أيسر أن يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك ، أم أن يقال قم واحمل سريرك وامشِ ؟... مر ٢: ٩ " ، ولا شك أن أي شخص كان يستطيع أن يقول للمفلوج " مغفورة لك خطاياك "، ولكن المسيح – وهو الله الظاهر في الجسد – برهن علي قدرته علي المغفرة ، بقدرته علي الشفاء ، ولو لم يخرج المفلوج سليماً، لأتهم اليهود السيد المسيح بالزيف والادعاء .

٣- يقولون أن العلم يسعي إلى اكتشاف القوانين التي تحكم ظواهر الحياة ، بينما الإيمان مبني علي المعجزات ، أو باختصار الإيمان قائم علي كسر القوانين .

وتعالوا ننظر حولنا ، كم من أمور حياتنا اليومية يسير طبقا للقوانين التي وضعها خالق الكون ، وكم منها تسيره المعجزات ؟

وقد روى لي صديق أنه كان يسافر مع خبير أجنبي يعمل معه، وكان الخبير دائم السخرية من المهندس المسيحي لأنه يكثر من التشفع بمارجرجس ، واثناء الرحلة تعطلت السيارة ، فسخر الأجنبي قائلاً : قل لمارجرجس أن يأتي ويصلح لنا السيارة .. وواضح خطأ هذا الكلام ، فالسيارة تعطلت لإهمال في صيانتها ، ولو كانت السيارة بحالة جيدة لما توقفت .

وما بالنا – نحن المسيحيين – لا نقوم بحل المشكلة الاقتصادية في بلادنا ، بأن نحضر خمس خبزات وسمكتين ونصلي عليها ثم نطعم الشعب المصري كله ، دون حاجة إلى القروض الأجنبية أو التوسع في الزراعة أو المعاناة من أجل التنمية ؟

بديهي أننا لا نطلب تدخل الله المعجزي ، طالما أننا لم نبذل أقصي جهدنا بعد ، ومادام الحل في دائرة الممكن والمستطاع لدي الناس . وقديماً قدموا إلى يسوع المسيح فتىً محموماً فشفاه (يو ٤: ٥٢) ، والآن اكتشف الإنسان المضادات الحيوية التي تشفي الحمي ، ولو أتي

السيد المسيح في زماننا هذا من كان سيتقدم إليه من المرضى ، المصابون بالحمى أم المصابون بسرطان الكبد ، وغيره من الأمراض التي لم يكتشف لها العلماء علاجاً بعد ؟ .. هل معني هذا أنه لم تعد هناك حاجة بنا المسيح ؟ بالقطع نحن محتاجون أشد الإحتياج إلى المسيح .. كل ما في الأمر أن حدود المستطاع وغير المستطاع لدي الناس قد اختلفت نحن نصلي إلى الله وندعو الطبيب ... الإيمان والأعمال معاً ... والله والإنسان معاً . إن القاعدة هي أن نحيا طبقاً لقوانين الكون والاستثناء هو المعجزات .

وسوف تزداد إنجازات العلم ، وستنمو وتتسع دائما دائرة المستطاع لدي الناس، وسنظل دائما وأبدا في حاجة إلى قوة الله الفاعلة حيث لم تصل بعد يد الإنسان[١٧] أما تعليق كل شيء علي المعجزات فهو، مرة أخرى، دعوة إلى الكسل والتواكل . وهذا الكلام ينطبق ايضا علي جهادنا ضد الخطية، فنحن نقاوم افكار الشر، ونتحفظ ونشبع أرواحنا بوسائط النعمة، لكن نعمة الله هي الكفيلة بخلاصنا من بصمات الخطيئة داخلنا .

٤- ونأتي إلي النقطة الأخيرة، هل صحيح أن أسرار الله تفوق حدود العقل البشري؟ وليكن واضحاً أننا لا نتحدث عن الله ذاته ، بل عن الأمور التي أعلنها لنا الله ، لو كانت هذه الأمور لا يمكن للعقل أن يستوعبها ، فكيف جرؤ الآباء القديسون علي شرحها باستفاضة وتمكن ؟! وقد تعرضنا لهذه المسألة من قبل .

ينبغي إذن أن نفرق بين الفكر الذي يتحدث عن الله في جوهره ، فيصفه بأنه غير المحوى ، غير الموصوف ، غير المنطوق به، فجوهر الله أعظم من أن يستوعبه عقل إنسان، وبين الفكر الذي يتحدث عما أعلنه الله لنا فيشرح الثالوث، والعلاقة بين الأب والإبن، وكيفية انبثاق الروح القدس من الأب وكيف يشهد الروح للإبن ... وهكذا ، ويفهم الناس هذه الأمور . إن القدر الذي أعلنه الله لنا من أسراره يمكن أن يستوعبه العقل تماماً . فمع أن الإيمان فوق العقل ، إلا أنه لا يلغي العقل !

---

١٧ تتسع المشكلة الواحدة لعمل الله وعمل الناس في آن واحد ، ففي موضوع نقص انتاج القمح عن الاستهلاك ، ينبغي أن يجاهد الناس نحو تخفيض استهلاكهم للخبز (المستطاع) بينما تصلي الكنيسة من أجل فيضان واف ومناخ مناسب يأتي بمحصول أوفر (غير المستطاع لدي الناس) (لو ١٨: ٢٧) .

وأن شئنا الحق فأن افتراض التناقض بين العلم والإيمان ، أو بين العقل والإيمان ، يستند إلى حجج دخيلة علي الكنيسة ، خاصة كنيسة الإسكندريه التي أخرجت للعالم أول وأعظم مدرسة لاهوتية في الكنيسة كان منهجها الأساسي هو المعرفة .

إنما يرفض الناس العلم لأنهم لم يتدربوا علي استخدام عقوهم ، ولأنهم يستسهلون إلقاء مسئولية واقعهم علي عاتق الله ، بدلا من أن يجاهدوا من أجل تنمية حياتهم ، وتحقيق قصد الله في خلقهم... ولم لا ؟.. أليسوا ابناء آدم الذي خلقه الله ووضعه في الأرض لكي يعملها ويحفظها !

١٧ـ الرؤية الأرثوذكسية للحياة

١ـ الإنسان مخلوق على صورة الله

يذكر الكتاب المقدس بوضوح شديد أن الله قد خلق الإنسان على صورته ومثاله ، ويرى القارىء أن للإنسان مكاناً خاصاً ومكانة متميزة في خليقة الله القدوس . فالخليقة المادية صنعت من أجل الإنسان (تك ٢: ٤) ، أما الإنسان فوجوده وحياته لها قيمة خاصة ... فهو يُخلق بعد أن يُعد له الكون ، ويعطي السيادة على العالم ، ويكلف بالعمل والسيطرة على الطبيعة ، وبعد فالمستقبل مفتوح أمامه ليزداد عدداً وسيطرة ، وهو يختص بعلاقة حميمة مع الله ، الذي يحضر إليه المخلوقات ليدعوها بأسمائها (تك ٢: ١٩) ، بل وينزل ليتمشى في جنته ويعطيه وصية تحدد علاقته مع الخالق (تك ٢: ١٦و١٧ + ٣: ٨) . الإنسان مخلوق على صورة الله ، ولكنه ليس صورة الله . صورة الله هو المسيح ، الكلمة المتجسد ، الله لم يره أحدٌ قط ، الإبن الوحيد هو الذي أعلن الله للناس (يو ١ : ١٨) ، الإبن الذي هو بهاء مجد الله ورسم جوهره (عب ١ : ٣) ، ومع هذا فالإنسان ُيدعى صورة الله لأنه خلق هكذا "على صورة الله ومثاله" ، ولكن ما معنى هذا ؟ ، هل الصورة الإلهية في الإنسان في كونه سيداً على الطبيعة المادية ؟ الحق أن سيادة الإنسان على الطبيعة ناتجة عن كونه مخلوقاً على صورة الله و ليست سبباً لها .

٢ـ مكانة الإنسان في الخليقة :

إن المزايا التي أُعطيت للإنسان تجعله بحق مؤهلاً للسيادة ، إذ أُعطى :

العقل : بملكاته الثلاث .. الفكر والإرادة والوجدان

الأختيار : الذي يتيحه له العقل و الخيال الحر الطليق

المسئولية الأدبية الأخلاقية : في التمييز بين الخير والشر

إن النفخة العلوية التي حولت التراب إلى نفس حية ، إن الطبيعة التي اختُص بها الإنسان وكونه ذاتٌ حُرة بما لها من جوانب روحية ومادية ، تعلن صورة من قداسة وبركة القدرة الإلهية التي أخرجتها من العدم واستدعتها إلى الوجود الفعال .الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكنه إقامة علاقات مع الآخر يتجاوز فيها حدود ذاته ، علاقة لا تتوقف عند النفع الأناني المباشر من الغير، ورُب إنسان يكرس حياته لحماية البيئة . الإنسان هوالكائن الوحيد القادر على أن يحيا في شركة مع الآخر . لذا أصبح الإنسان سيداً للعالم ومحوراً للخليقة ، وكاهناً لها كما أراد له الله القدوس ، ففي سيادة الإنسان على الطبيعة إنعكاس لربوبية الله ، وإذ فوِّض في الأرض أصبح مدعواً لشركة الطبيعة الإلهية (٢بط١ : ٤) الإنسان مخلوق على صورة الله ولكنه ليس صورة الله : فالإنسان يفهم حقيقة كيانه مما يتعلمه من الله (الأصل) وليس مما يتعلمه عن نفسه (شبه الصورة) . والمسيح صورة الله الحقيقية هو الذي يتوجه إليه الإنسان ليعرف علة وجوده ويفهم انسانيته ويتجاوز سقطاته ويجدد طبيعته .

الإنسان هو محور الكون وسيده ويبقى هكذا طالما احتفظ : بالعقل والإختيار الحر والمسئولية الأخلاقية ، ومتى أهتز فيه أحد أو كل هذه الجوانب اهتزت سيادته للكون وانحرفت ، وأصبح عبداً لأهوائه ، وتردى بهذا الكون في الشر والدمار كما يحدث كثيراً . الإنسان هو المحور في منظومة كونية متكاملة ، والطبيعة المادية بالنسبة للأنسان في موضع السيطرة والأخضاع وليست في مكان السيادة ، فمن يجعل المادة هدفاً له وليست مجرد وسيلة لاستعلان عمل الله انحدر بنفسه من مكانة السيد إلى مكان التابع للمادة ، واستسلم لمطالبها التي لا تشبع لتضيع الحياة في غير مقصدها . لقد خلقت المادة من أجل الإنسان كأعلان عن محبة الله له ، فإن انعزل الإنسان عن محبة الله ، فقدت المادة دافع وجودها وأصبحت مجرد نفاية .

٣ـ علاقة الإنسان مع الله :

ينبغي أن يكون واضحاً أن العلاقة بين الإنسان والله علاقة تبعية ، وليست علاقة ندِّية ، وليس في هذا تناقض مع حرية الإنسان ، فبدون روح الحياة الذي أخذه من الله يعود الإنسان إلى العدم ، مجرد كومة من تراب ، ويفتقد الوجود الفعال البناء الذي هو قصد خلقته وعلة ما تميز به على باقي الخليقة . إن تحدي الإنسان لله وتمرده عليه يقوده إلى الموت حتى وأن تنفس وتحرك وأنجب . فالوجود غير الفعال غير البناء ، غير الممتد إلى الأغيار إنما هو موت فعلي " بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً – يو ١٥: ٥ ". لذا فأتضاع الإنسان ليس مجرد فضيلة ، بل هو ضرورة حياة ، لذا أكد القديسون أن الكبرياء نبع كل الرذائل ، وأن الأتضاع نبع لكل الفضائل ، وهذا هو المعنى الكامن في كلام ربنا الذي يستحق أن ندرسه مراراً "من يهلك نفسه من أجلي فهذا يخلصها . لو ٩ : ٢٤ " .

٤ـ المفهوم المسيحي للحياة :

الحياة هي الحقيقة الأساسية المشتركة بين الله والإنسان ، وقصة الخليقة تبدأ بالتسليم بالوجود الحي الفعال لله وإعتبار ذلك الوجود أمراً بديهياً حتى أن الله لا يوصف بالإله الحي إلا متأخراً في تث ٥: ٢٦ . إذن الحياة هي من طبيعة الله ومنحت للأنسان ليحيا ، لقد ُخلق الإنسان ليحيا روحاً وجسداً " أنا حي وأنتم ستحيون –يو ١٤: ١٩ " ، وقد تباينت ثقافة الحضارات القديمة ، فبينما افترض البابليون أن الإنسان قد خلق لكي يموت بعد فترة ، نرى الحضارة المصرية تؤمن أن الخلود هو مصير الإنسان . ومحور الرجاء المسيحي هو الخلود أو كما نسميه الحياة الأبدية للأنسان روحاً وجسداً . لقد كشف السقوط حقيقة الفناء الكامن في طبيعة الإنسان ، فكما استدعي الإنسان من العدم إلى الوجود بموقف من الحب الألهي ، لا ينال الخلود إلا بهبة إلهية ، وفيما بين الولادة والأبدية لا يستمر في الحياة إلا بمعونة إلهية . فمنظورنا إلى الحياة ينتظمه العمل الألهي من البداية وحتى الأبدية . ليس معنى هذا أن الإنسان مربوط بقيود إلى الله ولكن هذه هي طبيعة الأمر ! ببساطة لأن الإنسان لم يخلق نفسه وليس له حياة في ذاته مثل الله، فمصدر الحياة الوحيد هو الله ومن أنعزل عنه مات . ويحضرنا هنا مثال لائق : لقد خرج الشعب من أرض العبودية بمعجزة إلهية ، ودخل إلى أرض الموعد بمعجزة إلهية ، وفيما بين الخروج والدخول كان الرب يقوتهم

بمدد يومي من السماء ليعلموا أن الحياة في رضاه والبقاء في شركته ، وأنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الرب (تث ٨: ٣ + لو ٤: ٤).

٥ـ مكان الإيمان وعمل الروح القدس :

الحياة إذن تتجاوز مجرد حدود الإنسان ، فهو يدين بحياته للرب ، وفي النهاية سيعطي عنها حساباً أمام الرب ، وعندما دخل الموت إلى العالم بحسد إبليس (الحكمة ٢: ٢٤) ، تدخلت المحبة الإلهية وتجسد إبن الله لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية . ومكان الإيمان في المنظور الأرثوذكسي هو البداية التي تليها المعمودية كولادة ثانية وبداية للحياة الجديدة ثم عمل الروح القدس داخل النفس والجسد من خلال المداومة على الأسرار ووسائط النعمة والجهاد الروحي الشخصي ومحبة الآخرين ، ويستمر هذا حتى الإنتقال إلى الحياة الأبدية ، بينما في الكنيسة البروتستانتية يعتبر الإيمان هو نهاية الرحلة إذ يعتقدون أنه بالإيمان والمعمودية يكتمل الخلاص .

فالتحول من الموت إلى الحياة يتم بالاستجابة لدعوة رب المجد " تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت إبن الله والسامعون يحيون – يو ٥: ٢٥ + قارن مع يو٥: ٢٨ " والحياة الجديدة قائمة أساساً على عمل الروح القدس في المعمودية أولا ثم بحلول مواهبه في الإنسان – روحاً ونفساً وجسداً – من خلال سر الميرون واستمرار التهابه واضطرامه في النفس بالأفخارستيا ووسائط النعمة .

هذه الاستجابة لعمل الروح القدس هي ما يسميه سفر الرؤيا " القيامة الأولى " ومن يكون له نصيب فيها ينجو من " الموت الثاني " الموت الأبدي (رؤيا ٢٠: ٦) حين يأتي إبن الإنسان ليدين الأحياء والأموات . فالروح القدس هو الذي يجددنا (يو٣ : ٥) ، والروح القدس هو أساس حياة أجسادنا المائتة (فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم – رو ٨: ١١) ، والروح القدس هو الذي يعدنا لميراث الأبدية (١كو ١٥: ٥١-٥٤) .

٦ـ الحياة تولد من الموت :

ولكن الفكر المسيحي يؤكد أن الحياة لا تولد إلا من الموت ! فبموت المسيح بطل الموت واستحققنا الحياة الأبدية (٢ تي ١: ١٠) ، ونحن نولد منه بعد أن ندفن في المعمودية (كو

٢: ١٢) ، وعلى المستوى الفردي إن لم تمت حبة الحنطة تبقى وحدها ، وإن لم يبذل الإنسان ذاته يهلكها ، وإن لم يضحِ بأهوائه وأنانيته لا ينال الحياة الحقيقية ، " الحق الحق أقول لكم أن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمُت فهي تبقى وحدها ، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير ، من يحب نفسه يهلكها ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها في حياة أبدية – يو ١٢: ٢٤و٢٥ " . فالحياة المسيحية هي الحياة الباذلة ، والوجود الحقيقي هو الوجود الفعال ، ليس فعالاً بالأخذ بل فعالٌ بالعطاء ، اي سمو هذا حين ينسى الإنسان نفسه فيذكره الله في كتاب الحياة (لو ١٠: ٢٠) ، ويلقي بنفسه في الهلاك من أجل أحبائه فإذا بالمحنة تتمخض عن إنسان قد انتصر على الموت (٢ كو ٤: ٨-١٠) ، من يملك هذا الإيمان القوي ومن لديه هذا الحب العظيم حتى يضع نفسه من أجل الناس كما فعل رب المجد تاركاً لنا مثالاً لنتبع خطواته ، من هنا نعلم المركز المحوري لقيامة المسيح في مفهومنا عن الحياة ، إن المسيح بموته على الصليب انتصر على الموت مرةً وإلى الأبد ، وكم كان الوحي صادقاً حين قال على لسان بولس : إن لم يقم المسيح فأيماننا باطل (١ كو ١٥: ١٤-١٩) ، بل ولا يصبح للحياة مغزى أو هدف ويحيا الإنسان كالسائمة يأكل ويشرب لأنه غدا يموت . إذن مدخل الحياة هو إهلاكها ! ، والوجود الحقيقي يتحقق ببذل الوجود الشكلي ، والمقصود أن الحياة الحقيقية، الحياة الأبدية مع الله، تبدأ بنسيان الأنانية وبالتعب من أجل الأخر ، أن نخدم الناس ونضحي من أجلهم ، وحتى داخل الفرد نفسه فكل جانب من جوانب الإنسان ، بيولوجية أو نفسية أو روحية عليه أن يضع احتياج باقي الجوانب في اعتباره . نعم .. فحتى الناحية الروحية لا تكون سليمة إن لم يراعَ فيها الجانب المادي ، وكم حذرنا الآباء من النسك الخاطئ أو التباري في الصوم والسهر فوق طاقة الإنسان . فالحياة الروحية تقديس للكيان الإنساني كله ، عقلاً وجسداً وعاطفةً ، وارتقاءً بالمادة الي مستوى الشركة مع الله . ولكن لبذل الذات أهمية أخرى ..

٧ـ الإنسانية مشروع لم يكتمل بعد !

فمنذ اللحظة الأولى والإنسان مدعو للعمل المستمر ، فالسعي الدوؤب نحو التغيير الي الأفضل هو علامة الإنسان الواعي بكيانه ، المدرك لأبعاد الصورة الإلهية فيه، هذه الصورة التي تحققت مرة في المسيح والذي بدوره طالبنا بأن نكون كاملين . ألا ترون القلق المستمر

الذي يحيا فيه الإنسان ، إن هذا القلق يستطيع أن يكون حافزاً للأفضل ، إن الساعين للكمال لا يتوقفون كل حين ليرددوا إنجازاتهم إلا بقدر ما تكشف هم هذه الإنجازات عن الخطوات التالية . فكم وكم بهؤلاء الذين يستسلمون للحياة ، ويرفضون المخاطرة بما لديهم للسعي وراء ما ينبغي أن يكون، غير مدركين أن المخاطرة هي التي تنقذ ما لديهم من نعمة حقيقية، ألا وهي صميم كيانهم المتحرك دائماً والمتجدد دائماً .

هل تسعى الي حياة القداسة ؟ إذن خبرني متى تستطيع أن تقول "الحمد لله لقد صرت قديساً" . هل تسعى الي خدمة الناس ؟ إذن خبرني متى تستطيع أن تقول " الحمد لله لقد اكتملت خدمتي " . هل تعمل طبيباً أو مهندساً أو معلماً أو صانعاً أو تاجراً ؟ إذن كن صادقاً مع نفسك وقل متى تستطيع أن تقول لقد بلغت الكمال في مجال عملي . إن المستسلمين للحياة تحركهم بدلا من أن يحركوها ، يصبحون مثل كتل الخشب تتقاذفها المياه مصيرها الحتمي هو التبدد . طوبى للمتمردين على الواقع ، طوبى للساعين إلى الأفضل ، فهؤلاء هم الذين يتذوقون لذة الحياة مع الخطر، مع التجدد، مع عمل الله فيهم وتكشفهم المستمر لجوانب الصورة الإلهية التي فيهم ، " لأن كل من له يعطي فيزداد ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه– مت ٢٥: ٢٩ "

التضحية إذن حتمية ، فلا بديل عن خروج الإنسان من قوقعته ومن تمركزه حول ذاته ، فهو السبيل الوحيد لكي يكتشف وزناته ويدرك قصد الله من خلقته ويصبح لحياته معنى، والمخاطرة لا مفر منها ، فالإنسان لا يعلم كيف سيكون موقف الناس منه ، فقد يقدم الحب فلا يجد إلا الجحود ، وقد يقدم الوفاء فيجد الغدر ، ولكن المخاطرة معقولة محسوبة ، وما يرجح المغامرة ويجعلها حتمية أن بقاء الإنسان في سجن ذاته خسارة مؤكدة ، فالإنسان السوي يقبل بخطر محتمل قد يؤلمه لينجو من خطرٍ مؤكد سيهلكه ، كمن يترك ممتلكاته ليهرب من الحريق . ولكن الله موجود عينه على طرق الأبرار ، وإذا كان من البشر من يتلذذ بآلام الآخرين ، فمنهم من هو مثلك يبحث عن ذاته في الآخرين . الإنسان مشروع لم يتحقق كاملاً بعد فهو مدعو للطبيعة الجديدة ، خليقة تتجدد وتتحرر شيئاً فشيئاً ، حين نتحول فيه الي الصورة التي وجدت في فكر الله حين خلق

الإنسان على شبهه ومثاله " إذ خلعتم الإنسان العتيق ..ولبستم الجديد والذي يتجدد حسب صورة خالقه – كو٣ : ١٠ "

٨ـ فترة الوجود على الأرض :

الشائع عند الناس أنه كلما قصرت فترة الوجود على الأرض كلما كان ذلك أفضل ، ألم يقل القديس بولس أن الموت هو ربح ، ألم يقل رب المجد أنه في العالم سيكون لكم ضيق . ولكن إذا كانت الحياة بهذه القسوة فلماذا خلقنا الله أصلاً بهذه الطبيعة التي تمزج المادة بالروح ؟ لماذا وجدنا على الأرض ؟ وما أهمية فترة وجودنا على الأرض ؟ هل هي مجرد امتحان نرجو أن يكون سهلاً وقصيراً ؟ إذا كانت الحياة مجرد امتحان عسير فلماذا يبارك الله الناس بإطالة حياتهم ؟ ألم يعد كل من يكرم أباه وأمه بطول الأيام على الأرض (خر ٢٠: ١٢) ، وحين ظهر الرب لسليمان الملك ليهبه الحكمة كان العمر الطويل من ضمن البركات (١ مل ٣: ١١) ، ألم يستجب الرب لطلب حزقيا البار ومد في عمره ١٥ سنة (٢ مل ٢٠: ٥و٦) ؟ ألا تتكرر في العهد القديم تلك العبارة عن الأبرار ، أنه مات بعد أن شبع من الأيام (تك ٢٥: ٨ + تك ٣٥: ٢٩ + أي ٤٢: ١٧) ، ألم يعوض الرب أيوب عن تجربته المريرة التي مر بها ومن ضمن التعويض أعطاه عمراً مديداً (أي ٤٢: ١٦) ، ألم يعاقب روح الرب حنانيا وسفيرا بالموت المفاجئ (أع ٥: ٥و١٠) ؟

ما أهمية فترة وجودنا على الأرض ؟ هل هي فترة استعداد للحياة الأبدية ؟ ، بالتأكيد ، هي فترة استعداد للأبدية ، وما دامت فترة استعداد ألا نرجو أن تطول لكي يكون استعدادنا أفضل وأفضل . ولكن لا تنسى أنك جزء من البشرية العامة أستعد لأبديتي الشخصية حقاً ولكن على أيضا مسئولية أن أمهد الطريق لأخوتي ، انظروا ما يقوله الوحي " الفاهمون يضيئون كضياء الجلد ، والذين ردوا كثيرين الي البر كالكواكب في أبد الدهور – دا ١٢: ٣ " ، ولنقرأ كلام القديس بولس عن المواهب المتنوعة التي يعطيها لنا الرب " لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح ، هي أن ننتهي جميعنا في وحدانية الإيمان ومعرفة إبن الله في إنسان كامل في قياس قامة ملء المسيح – أف ٤: ١٢و١٣ ". إذن على الأرض نحن نستثمر وزناتنا ونحقق القصد من خلقتنا ، ونتحمل

مسئوليتنا تجاه الآخرين والكون الذي وضعنا الله فيه لنعمله ونحفظه . أن هذا لا يتم فقط بالجهاد والكرازة بل أيضاً بالسعي لتصبح الحياة أفضل للكل ، ألم يطلب الرب منا أن نشهد له (أع ١ : ٨) ، ألا يدعونا القداس الي أن نبشر بموت المسيح ونعترف بقيامته (في ٣: ١٠) ؟

فطوبى لطبيب يعالج الناس بأمانة ولمدرس يعلمهم بتجرد ؛ طوبى لصانع يجتهد في ورشته ولعالم يبتكر في معمله ، وطوبى لتاجر يتعامل بتقوى ولفلاح يسهر على زراعته .. إذن الكفاح من أجل تحسين الأحوال المادية لنفسي ولمن حولي مشروع تماماً ، ولكن احترسوا من الأنانية وأن يستولي جانب واحد على الحياة كلها ، فإذا كانت الكنيسة تهتم بنا اهتماماً متكاملاً فبالأولى أن أهتم بنفسي اهتماماً متكاملاً وألا أترك جانباً واحداً يستعبدني، ولتبق المادة في مكان الخادم وليست في مكان السيد كما أسلفنا القول . ولكن أقول الحق لا أكذب أن أية محاولة لحفظ التوازن بين جوانب الحياة بعيداً عن المسيح عمل محكوم عليه بالفشل ، فإن لم يكن رب المجد هو محور الحياة ستختل الحياة كلها .

٩ـ اهتمام الكنيسة بالاحتياجات المادية والأحوال المعيشية لإبنائها :

وإذا كانت الحياة المادية لا قيمة لها بالمرة فلماذا لم يخلقنا الله من طبيعة روحية خالصة ، ولماذا بالأولى يتمجد الجسد في الأبدية وكلنا يعلم أننا في الحياة الآتية سيكون لنا مثل جسد المسيح بعد القيامة جسد خال من ناموس الخطية، ولكنه جسد ملموس له لحم وعظام (لو ٢٤: ٣٩) ، الخليقة المادية إذن قصد إلهي خالد .

إن اهتمام الكنيسة وانشغالها بالاحتياجات المادية والراحة المعيشية لابنائها لا يظهر فقط في اهتمام الرب بإشباع الجموع ، أو في تنظيم الرسل لخدمة الموائد ، بل تظهر بوضوح شديد في صلوات الكنيسة ...

<u>ففي القداس الإلهي</u> وبعد أن يصلي الكاهن من أجل الزرع والعشب ونبات الحقل ، وأهوية السماء (الطقس الملائم) وثمرات الحقل ، ومن أجل المياه و الأنهار إذا به يطلب من الله أن يكون للشعب ، الكفاف في كل شئ ، لكي نزداد في كل صلاح .

<u>وفي أسبوع الآلام</u> حيث يجب أن ننشغل فقط بآلام الرب، نجد في طلبة المساء:

– أيها الباري رازق الكل نج شعبك من طوفان بحر العالم الزائل وارفع عنهم كل مكروه ، وكل الحيوانات أيضا وسائر الطيور اعطها قوتها لأنك تعطي للدواب رزقاً ولفراخ الغربان قوتها ، نسألك ...

– يامن ضيف عند عبده إبراهيم .. وبارك في زرعه .. تراءف على العالم وخلص شعبك من كل شدة..

– يا من عال شعب إسرائيل أربعين سنة في طور سيناء ولم يكن لهم بيوت ولا مخازن ... احفظ شعبك وعُلهم وبارك في منازهم ومخازنهم بالبركات السمائية ...

– يا الله تراءف على العالم بعين الرحمة والرأفة وبارك في كيل غلا تهم ومخازنهم وفي القليل الذي عندهم واصعد مياة الأنهار كمقدارها ، وهَبْ اعتدالا للأهوية ، ونيل مصر باركه في هذا العام وكل عام وفرح وجه الأرض وعلنا نحن البشر ...

– يا صانع العجائب والمعجزات ، ومن أشبع الألوف من الخمس خبزات .. بارك لعبيدك في خبزهم وزيتهم وزرعهم ونخلهم ومتاجرهم وصنائعهم ومباشراتهم ..

<u>وفي أوشية القرابين يقول الكاهن :</u>

والذين قدموا لك .. أعطهم الباقيات عوضاً عن الفانيات ، السمائيات عوض الأرضيات ، الأبديات عوض الزمنيات ، بيوتهم ومخازنهم املأها من كل الخيرات .

<u>وفي طلبة اللقان :</u>

– فرح وجه الأرض ، جددها دفعة أخرى ، أصعد نهر النيل كمقداره ....

– بارك إكليل السنة بصلاحك ، وبقاع مصر .. ليكثر حرثها وتتبارك ثمارها

– لتفرح حدود كورة مصر و لتتهلل الآكام بفرح من قبل صلاحك ...

<u>وفي تذكار النيروز</u> : في ختام الصلاة وفي مرد الأبركسيس :

بارك إكليل السنة بصلاحك يارب ، الأنهار والينابيع والزرع والثمار .

وفوق هذا فالكنيسة تصلي مرارا وتكرارا من أجل الأحوال المحيطة بإبنائها من حيث التعامل مع السلطة ومع قوى الطبيعة ، فنصلي من أجل الحكام ومن أجل القائمين على شئون البلاد (أوشية البلاط في القداس الكيرلسي) ، ونصلي من أجل أن يبعد الله عنا الوباء والجلاء (السبي) والفناء وسيف الأعداء .

و الكنيسة تهتم بصحة إبنائها :

في كل يوم يقف الكاهن يرفع البخور ويصلي أوشية المرضى، طالباً الشفاء للجميع من أمراض النفس والجسد معطياً اهتماماً كبيراً لأمراض النفس . ألم تجعل الكنيسة المرشدة بالروح القدس سراً خاصاً من أجل شفاء المرضى ، ألا يذهب الكاهن الي المريض في بيته ليصلي صلوات سبع طويلة يختمها بأن يرشم المريض بالزيت وهو سر أسسه السيد المسيح مع تلاميذه (مر ٦: ١٣) ، بل أننا نجد في كتب الكنيسة صلاة خاصة من أجل من يتعرضون لخطر الإصابة بمرض السعار .

لماذا كل هذا الاهتمام بالنواحي المادية ؟ لسبب بسيط ، لأن الإنسان كلٌ متكامل ، فمن يستطيع أن يحيا حياة سوية وهو في ضيق مادي أو نفسي أو اجتماعي (اقرأ مرة أخرى أوشية المرضى) .

١٠ـ هل الهرب من الموت جبن أم حكمة ؟ :

فضلا عن تحريم الانتحار تماماً ، فإننا نرى في الحديث الختامي الرب يسوع المسيح يحذر تلاميذه من الخراب المزمع أن يحل بأورشليم، و يؤكد عليهم أن يهربوا عندما يروا رجسة الخراب في المكان المقدس (مت ٢٤: ١٥و١٦)، ويطلب عن تلاميذه ألا يُؤخذوا من العالم بل أن يُحفظوا من الشرير (يو ١٧: ١٥) . ونقرأ عن الذين هربوا من جراء الضيق الذي تلا شهادة أسطفانوس (أع ٨: ١ + ١١: ١٩) ، وحين تشاور اليهود ليقتلوا بولس الرسول قام التلاميذ بتهريبه خوفا على حياته (أع ٩: ٢٣-٣٠)، وحين وضع بطرس الرسول في السجن كانت الكنيسة تصلي بحرارة من أجله (أع ١٢: ٥) ، ولم يقل أحد هنيئاً عليه لأنه سيموت من أجل الرب ! وحين سقط أفتيخوس ميتاً أسرعوا يصلون من أجله ولم يقولوا طوباه لأنه قد نال الملكوت ، وفرحوا فرحا كبيرا عندما رُد إلى الحياة (أع ٢٠: ٩-١٢) .

الحرص على الحياة شئ هام ، ولننظر القوانين التي صدرت بشأن الجاحدين الذين أنكروا الإيمان في فترة الإضطهاد : (عن " تاريخ الكنيسة " للقمص منسى يوحنا)

١- الذين زلوا بسبب ما قاسوه من العذاب .. صوم ٤٠ يوم ويقبلون في العيد الآتي

٢- الذين عثروا لسبب السجن دون عذاب شديد ... توبة لمدة سنة ثم يقبلون
٣- الذين ارتدوا لمجرد الخوف دون أن يذوقوا عذابا ... قانون توبة لمدة ٤ سنوات
٤- الذين ارتدوا ولم يطلبوا التوبة .. الكنيسة تبكيهم وترثي لأجلهم
٥- الذين نجوا من العذاب لتظاهرهم بالبله أو أية حيلة ... توبة لمدة ٦ شهور
٦- الذين ارتدوا ثم عادوا .. وتحملوا السجن أو العذاب يقبلوا دون فحص
٧- كل الذين قدموا أنفسهم للأخطار طواعية واختيارا دون أن ينتظروا إلقاء القبض عليهم أو يصبروا حتى يروا ما يحل بهم لا تصح محاكمتهم وعقابهم ، بل يكتفي بتذكيرهم أن المسيح ورسله لم يعملوا هكذا ولم يلقوا بأنفسهم في الهلاك أما الذين سقطوا من هذه الفئة .. فإذا كانوا من الأكليروس ... فلا يجب قبولهم في الوظائف الكهنوتية ثانية بل يقبلون كأعضاء في الكنيسة فقط .
٨- جميع الذين افتدوا أنفسهم بدراهم دفعوها فداءً عنهم فلا يلامون قط .
٩- لا شئ على الذين نجوا بواسطة هربهم من الموت ولا قصاص ..
.... لا تعليق

١١ـ الجانب الاجتماعي للحياة :

والإنسان كائن اجتماعي ، يحب و يتزوج و يصادق و يتعاون و ينتمي الي عائلة وإلى شعب وأمة ، فهؤلاء الناس هم النظير (تك ٢: ١٩) الذي يستطيع أن يعينه ، فمن يتمركز في أنانيته يكسر معادلة خلقته ، ويعاني من وحدة مميتة مهما أغوته القوة والسيطرة المنفردة ، ومهما أخافته أعباء الانتماء ومسئولياته ، وعلاقات الصداقة والحب والزواج والوطنية والإنسانية بصفة عامة خلقت مع الإنسان وفي صميم كيانه ، فإذا تجاهلها الإنسان أختل توازنه وفشل في إدراك السعادة التي نتمناها جميعا دون رغبة في دفع ثمنها ، هذا الثمن هو المسئولية الإنسانية .

إن موقف البذل المطلوب يستدعي بالضرورة التزاماً اجتماعياً للمسيحي ، بمعنى مسئوليته أن يكون نوراً وملحاً للأرض . إن الوزنات التي أعطيت لي لا يجوز لي أن أدفنها بل أن استثمرها في خدمة الناس وتنمية المجتمع الذي أعيش فيه ، تلك المسئولية التي سوف أعطي عنها حساباً لواهب الوزنة ، ويكفي الإنسان أنه نال بركة الوجود وسينال

مكافأة عن عمل لا فضل له فيه ، بل فضل البداية والاستمرار والنجاح فيه لله . ويمتد هذا الموقف في الكون على إتساعه ، فما يتردد الآن عن حماية البيئة سبقت إليه التسبحة اليومية ، حين يصلي الإنسان عن المطر والينابيع والأنهار والحيوان والطيور وكل صورالحياة على الأرض فينغرس في وعيه وضميره أنه جزء من منظومة هائلة أبدعتها يد الخالق العظيم ، وهو المسئول وهو الكاهن عن كل الخليقة التي صنعت من أجله أصلاً . ولاشك أن ما يجعل هذه المسئولية عملاً جذاباً هو الترتيب البديع الذي وضعه الله في الكون

١٢ـ مكان الفكر في الحياة :

إن الحياة الإنسانية تتجاوز مظاهر النشاط الحيوي مثل التنفس والتكاثر .. ، قولوا هذا لمن تخدمونهم ، لو اقتصرت اهتماماتي على النواحي المادية فلن أختلف شيئاً عن البهائم ، ولو قصرت اهتماماتي على ما سيحدث بعد الموت دفنت وزنتي وتخاذلت عن مسئوليتي .

إن علامة الحياة الإنسانية الفارقة هي الفكر ، والغريب أن بيننا من يعتبرون الفكر شيئاً ضاراً ، بل إن في بلادنا من يعتبر التفكير سبباً للهم (صحيح أن الحكيم يقول أن من يزداد علماً يزداد غماً ، ولكن هل ينطبق هذا على أي علم ، هل من يزداد علمه بعقائد الكنيسة وطقوسها يزداد غماً ، هل من يزداد علمه بالإنجيل يزداد غماً ، هل من يزداد علمه في الطب أو الهندسة أو التاريخ يزداد غماً ؟ بالقطع لا ، ربما كان ما يقصده أن من يزداد علماً تزداد مسئوليته) .

احترسوا من هذا الموقف الساذج ، أن لا تشجعوا إبناءكم على التفكير في كل شئ ، والمقصود بالفكر هو أن يكون للإنسان مبادئ واضحة واتجاهات محددة تشكل سلوكه ومواقفه من الناس وظروف الحياة المختلفة . والحق أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بدون فلسفة في الحياة ولو دون أن يدري أنها فلسفة ، فإن لم يكن في ذهنه الرؤيا المسيحية للحياة ، فبدون أدنى شك سوف يسير في الحياة طبقا لرؤية غير سليمة ، رجعية كانت أو متخلفة أو غير مسيحية ، وما أكثر الأمثلة حولنا ، حين نرى الذين يؤمنون بالمكتوب كما أسلفنا الذكر .

إن حرية الفكر شئ أساسي في الحياة المسيحية ولكن في إطار فكر الله المعلن في الكتاب المقدس ، فمن الممكن جداً أن يخطئ الفكر ، ليس فقط بالتفكير في الخطية بل حتى في استخدام الحكمة البشرية ، ولنتوقف قليلا عند هذه النقطة الهامة :

" إن كان لكم غيرة مرة وتحزب في قلوبكم .. ليست هذه الحكمة نازلة من فوق بل هي أرضية نفسانية شيطانية .. وأما الحكمة التي من فوق فهي أولاً طاهرة ثم مسالمة مترفقة مذعنة مملوءة رحمة وأثماراً صالحة – يع ٣: ١٤-١٦"

بالقطع سنواجه ضيقات في الحياة ، وعادةً ما نفكر في رد الإهانة أو في الشكوى على الأقل ، بينما الرب يطلب أن نصلي لأجل أعدائنا هكذا تتباين حكمتنا مع الحكمة الإلهية ، ولكن كيف يتجه فكر الإنسان في الضيقة الي هذا الاتجاه ، الحق أن الإنسان الذي يتغذى يومياً من الإنجيل لن يحتاج إلى مجهود لأن الفكر الإلهي سيكون حاضراً في ذهنه . نعم يمكن أن يخطئ الفكر ولكن ليس هذا مبرر لإعدام الفكر وتقييد حرية الدرس أن الضمان ضد الشطحات هو : ١- أن يتفق فكري مع الإنجيل وتراث الآباء المعتمدين .

٢- أن أمتحن فكري بين أخوتي في الكنيسة .

٣- أن تكون لي الممارسات الروحية اليومية بإرشاد أب الاعتراف .

خلاصة الباب الثاني

١. أن المنهج الفكري المسيحي يقوم علي أنه لا تناقض بين الروح والجسد ، بمعنى المتطلبات المادية للأنسان ، بل يتكامل الإنسان روحاً وجسداً ويتناغم مع الله ومع الكون متى أدرك عمل الخطية فيه ، وقرر أن يقاومه بعمل الروح القدس من خلال وسائط الخلاص وبالجهاد المستمر من خلال وسائط النعمة .
٢. العلاقة بين الله والإنسان تنبني علي منهج مثلث الأبعاد : الفكر والعاطفة والإرادة : نفهم إلى أين نسعي ؟ ولماذا نريد السعي ؟ ونتحمس لهذا الهدف ، ونتجاوب مع محبة الله لنا ، ثم نسلك بما يترجم هذا الموقف وهذا الانفعال .
٣. العالم هو مسئوليتي كمسيحي ، فعلي أن أميز بين الشر والأنانية والإباحية المنتشرة وسط الناس ، وبين حب الناس والمساهمة في إنجازات الإنسان البناءة ، فمن ضمن مسئوليتي أن اكافح وأن اقاوم الظلمة التي في العالم.

٤. الله يعمل في الحياة والإنسان يعمل ، أنا أبذل أقصي جهدي، والله يعمل مالا يستطيع الإنسان عمله . الله يعين الإنسان ، ولكنه لا يعين الكسالى .. هذا هو الفرق بين الإيمان والتواكل.

٥. أن العقل المستنير بالروح ، وبالضمير الإنساني، وحب الناس ، هو طاقة سامية في الإنسان ، وبالعلم المبني علي العقل والساعي إلى خير الناس ينبغي أن نفكر وأن نخطط وأن نعمل مستعينين بقوة الله .

٦. أن افتراض التعارض بين العلم والإيمان هو حجة الكسالى.

٧. الحياة على الأرض هبة ثمينة من الله .

٨. الله يضمن لهذه الهبة الأستمرار والنمو والوفرة بشرط استجابة إرادة الإنسان لعمل الروح القدس وإدراكه القاطع أنه تابع للسماء وليس نداً لها ، لذا وضع الآباء الإتضاع كمنبع للفضائل .

٩. ينتقل الإنسان من موت الإنسان العتيق الي جدة الحياة بعمل الروح القدس تدريجياً .

١٠. الحياة في إطار الأنانية موت ، أما الحياة الحقيقية فهي بذل الذات والتعب من أجل الناس جميعاً .

١١. الحياة مع الله على الأرض ، حياة نحن مدعوون فيها للتمتع بهذا الكون الجميل وتنميته وصيانته لنا ولمن يأتي بعدنا ، حياة يملؤها الفرح والسرور النقي ، والإحساس بالمسئولية عن الناس والكون.

١٢. خُلق الإنسان كمزيج من المادة والروح وكلاهما يتقدس بعمل الروح القدس ويتمجد في الأبدية .

١٣. الحرص على العمر وعلى الصحة الجسدية والنفسية حرص على الهبة الإلهية المعطاة للإنسان .

١٤. الحياة على الأرض استعداد للأبدية وفرصة لقيام الإنسان بمسئولياته نحو الغير لهذا يضع الفكر المسيحي المحبة كغاية للإيمان .

١٥. طبيعة الإنسان تحتم عليه الإهتمام بالأحتياجات المادية ، والكنيسة تهتم بها وتصلي لأجل توفرها لأنها أمر ضروري لاستقامة السعي على الأرض والجهاد لأجل الحياة الأبدية .

١٦. أن الإنسان لا يحيا بدون رؤية وفلسفة ، من المهم أن تكون رؤية سليمة مبنية على الفكر الحر في إطار التعليم الإلهي والحياة الروحية والكنسية .

١٧. أن القيمة الحقيقية لهذا الفكر تظهر عندما يترجم الي قول وفعل وموقف من الغير ، موقف من الله والمجتمع والعالم والكون على إتساعه .